

من أخبار المسافرين (٣٦) مسافرون أيقنوا بالهلاك

إليك، أخي المسافر، هذه القصة لثلاثة نفر من المسافرين القدماء ولكن يا ترى ما مدى صحة هذه القصة، من أخبرنا بها، من نقلها إلينا؟ هل هي من نسج الخيال ومن حكايات القصص؟ لا والله إنها قصة حقيقية صادقة صدق الرسالة المحمدية، ناصعة نصاعة الشمس البهية، تتجلى فيها الرحمة الربانية، والعبرة الإيمانية، أما من رواها فهو أصدق إنسان عرفته الدنيا، إنه الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، يرويها عظيم العظماء وسيد البلغاء، والفصحاء، وخاتم المرسلين والأنبياء، أفضل إنسان نطق، وأعظم مُحدِّث صدق، فأزخ سمعك، وافتح قلبك، وأعمل عقلك:

«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدرح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي، وفي رواية: كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتهما

عشرين ومائتي دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، وفي رواية: فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبدالله، أد إليّ أجري فقلت: كل ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبدالله لا تستهزئ بي! فقلت: لا أستهزئ بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»

[متفق عليه]

معنى: لا أغبق: لا أقدم في الشرب قبلهما أهلاً ولا مالاً. والغبوق الشرب في العشي. معنى أَلَمْتُ بها سنة: أي من السنين المجدبة.

المسافر والهدية

عودة المسافر إلى أهله سالماً غانماً هو الأمل الذي ينتظره أهل كلِّ غائب أن يعود إليهم مسافرهم وهو في صحة وسلامة، ولكن ما أجمل أن يعود وقد حمل إليهم الهدايا القيمة، والهبات الطيبة، والذكريات الخالدة، والهدية لها في النفوس وقع متميز، وأثر فريد، ولا يشترط أن تكون شيئاً مكلفاً ولا أمراً ثميناً؛ لأن الأساس هو في قيمتها المعنوية حيث تعتبر رمزاً للمحبة، ودليلاً على المودة، ولذلك يقول صاحب الخلق العظيم ﷺ: «لو أهديت لي ذراع لقبلت، ولو دُعيت إلى كراع لأجبت».

وقال الشاعر:

إن الهدية حلوةٌ كالسحر تجتلب القلوبا
تدني البغيض من الهوى حتى تصيِّره قريبا
وتعيدُ مضطغن العداوة بعد نُفرتِه حيبا

وقال ﷺ: «تهادوا تحابوا» [حسنه الألباني في الإرواء من طريق أبي هريرة].

وإنك لتعجب لكثير من المسافرين يصرفون في أسفارهم أموالاً طائلة ويخسرون دراهم عديدة، ومع ذلك لا يوفِّق أحدهم في شراء هدية طيبة متواضعة يُدخل بها السرور على زوجته، أو يبهج بها قلب والدته، أو ينال بها رضا والده، أو يُطيِّب بها نفوس أبنائه وبناته.

وهذا أحد الشعراء يعمّم موضوع الهدية ويرى أن أصحاب الرجل وإخوانه يفرحون بعودته من سفره إذا حمل إليهم الهدايا ويكرهون لقياه إذا أتاهم صفر اليدين فيقول:

وإذا المسافرُ أبَ مِقْلَى مُفْلَساً صِفْرَ اليدين من الذي رَجَّاهُ

وخلا من الشيء الذي يُهديه للـ
لم يفرحوا بقدومه وتثقلوا
وإذا أتاهم قادمًا بهديّة
كان السرورُ بقدرٍ من أهدهُ
وإليك هذه الأبيات لأحد الشعراء يشنّع فيها على بعض المسافرين
الذين يذهبون للحج فيتلقاهم الناس بالترحاب والأطعمة الطيبة ثم هم
يخلون بالهدايا أو يأتي بعضهم بهدية رديئة من أحذية رخيصة أو غيرها.
يقول:

سقى حُجَّاجَنَا نَوْءُ الثريّا
همُ جمعوا النعالَ وأحرزوها
فإن أهديتُ فاكهةً وجدياً
ومسواكَيْنِ طولُهُما ذراعٌ
فإن أهديتُ ذاك ليحملوني
أناس تائِهون لهم رِواءٌ
إذا انتسبوا ففرعٌ من قريشٍ
عكل: قبيلة يقال إن فيهم غباوة وقلّة فهم.

وهذا أحد المستهزئين بالهدايا، ويقال إنه بشار بن برد حيث أهدى إليه
رجل شاةً هزيلة فقال:

وهبت لنا يا أبا منقرٍ
عجوزاً أضراً بها دهرها
سلوحاً حسبتُ بأن الرّعاء
وأجذب من ثور زراعةٍ
وأزهد من جيفةٍ لم تدعُ
فأهوت يميني إلى جنبها
وعجل وأكرمها أولاً
وأنزلها الدُّلُّ دارَ البليّ
سَقَوْها الغريقونَ والحنظلا
أصاب على جوعه سُنْبلاً
لها الشمسُ من مَفْصِلِ مَفْصِلَا
فخلتُ حراقيفها جندلاً

وأهوت يساري لعزقوبها
فقلت أبيع فلا مشرباً
أم اجعل من جلدها حنبلاً
إذا هي مرت على مجلس
رأوا آلة خلفها سائق
فكنت أمرت بها ضحمة
ولكن روحاً عدا طوره
فلولا مكانك خضبتُها
فجاءت لكيما ترى حالها
سألتك لحماً لصبياننا
فخذها وأنت بها مُحسنٌ

فخلت عراقيها مغزلاً
تؤدي إلي ولا مأكلاً
فأقدر بحنبلها حنبلاً
من العجب كبر أو هلاً
يحث وإن هرولت هرولاً
بشحم ولحم قد استكملاً
وما كنت أحسب أن يفعلاً
وعلفت في جيدها جلجلاً
فتعلم أنني بها مبتلى
فقد زدني فيهم عيلاً
ومازلت بي مُحسناً مُجملاً

* * *